

الثقافة والشخصية العربية

* تحديد معنى الثقافة :

تشير كلمة (ثقافة) ، الى حقيقة من طراز معقد ، ذات ابعاد وآفاق واسعة ، ومكونات وعنابر متعددة ، ومدلولات واتجاهات متنوعة لذلك يصعب أن تختزل ، وأن تندرج ضمن اطار تعريف مبسط ، ونهائي .

وهي تتراصف أحياناً وتتدخل مع مصطلحات أخرى ، كالحضارة ، والمدنية ، والايديولوجية ، والرسالة ..

لذلك فان تحديد (معنى الثقافة) يصطدم بصعوبات ويعرض لخطاء منهجية ، لابد من الاحتراز والتنبيه لها منذ البدء : اخطاء الفكر المجرد والنظارات الجزئية والاتقائية ، وعزل الثقافة عن اطارها الحي المتمثل بحياة الامة . اي بوجودها وشخصيتها وواقعها ، وبالسياق التاريخي الذي تسر به .

والثقافة تتحدد على ضوء (البنية الاجتماعية) و (اعمار الدولة) .

اما (فكرة الثقافة) الحديثة ، فقد جاءتنا من اوربا كثمرة من ثمار عصر النهضة^(٤) حيث أدى ازدهار الفكر والادب والفن ، منذ القرن السادس عشر ، الى استعارة الكلمة اللاتينية (Culture) من الزراعة والعنایة بالارض ، الى التعبير عن الواقع الاجتماعي وعطاء الفكر .

وعندئذ نشأ (مفهوم الثقافة) ، الذي تطور ونسا مع نشوء وتقدم ، علوم الانسان (الاتريولوجيا) والاقوام (الاتنولوجيا) والنفس (السيكولوجيا) والاجتماع (السوسيولوجيا) . . . فأصبح اكثر تحديدا .

وخلال النصف الاخير من القرن الثامن عشر استحدث اصطلاح الحضارة (CIVILISATION) ، فكان اول كتاب استخدمه ، يعود الى عام ١٧٦٦ ، وأول قاموس احتواه قد نشر عام ١٧٩٨^(٥) .

(٤) مالك بن بنى (مشكلة الثقافة) . دار الفكر - بيروت .

(٥) ساطع الحصري (اراء واحاديث في العلم والأخلاق والثقافة) دار الطباعة الجديدة - بيروت ١٩٥٠ . ص ٤٨ .

في اللسان العربي ، يتصل تاريخ الفعل (ثقف) بلغة العرب في الجاهلية ، ويشكل القرآن الكريم مصدر معنى (الثقافة)^(١) وهو (الفقر بالشيء ، بعد البحث والتقتيش عنه) ، كما جاء في الآية الكريمة : (واقتلوهم حيث ثقفتهم)

كما أن القواميس العربية ، القديمة والحديثة ، تنطوي على تحديدات متقاربة لمعنى الثقافة^(٢) : (سرعة الفهم ، اي الذكاء والمهارة والدقة ، والسعى لتحسين المعرفة وتهذيب الفكر وصقله ، وتقويم الاعوجاج ، والبحث والتقصي . . .) بيد أن ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) مؤسس (علم العمارة) هو الذي أعطى للثقافة معانٍ (عمرانية) مرتبطة بالعوامل المكونة للحياة الاجتماعية^(٣) . فقدم (العلوم والصناعات) محصلة وجاء من كل .

(١) انظر (التفسير الفريد) لمحمد عبد المنعم الجمال ، ج ١ . ص ١٧٩ القاهرة ١٩٥٢ .

(٢) انظر : (لسان العرب) المجلد العاشر : (يقال ثقف الشيء - وهو سرعة التعلم) . و (المصاح المنبر) - (ثقفت الحديث - فهمته بسرعة) . و تشققته أقامت الموج منه و (ابن دريد) : تشفقت الشيء حذقه و (اسس البلاغة) بمعنى طلب العلوم والمعارف . و (المحيط للفيروزبادي) ثقف ثقافة : صار حاذقا خفيفا فطنا .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، طبع مكتبة المشنفي - بغداد - ص ٤٣٤ و ٥٤٥ .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر بدأ اصطلاح (الايديولوجية)
 بالانتشار^(٦) فأصبح لابد من تحديد أدق
 لمعنى الثقافة حتى لا يلتبس مفهومها مع المعاني المحددة
 للمصطلحات الأخرى^(٧).

فإذا كانت الحضارة تعني^(٨) (مجموعة الظواهر المعبرة
 عن انشطة البشر في مجتمع أو عدة مجتمعات ، مع الطوابع الغالبة
 التي تكتسبها اصالتها) . أي^(٩) (العطاء الكلي لاجاز المجتمع
 المعنوي والمادي) وإذا كانت (المدنية) هي (التعبير المادي عن
 الانجاز الحضاري) وكانت الايديولوجية تعني^(١٠) (منظومة
 من الافكار والتصورات الاجتماعية تهدف الى غاية عملية ،
 وتصاحب قاعدة لعمل جماعي ، تتجه الى فهم حركة التطور والتاثير
 فيها عن طريق التنظيمات السياسية التي تحمل لواءها) .

(٦) تطور الايديولوجية العربية الثورية . للمؤلف ص ١١ بيروت
 المؤسسة العربية - ١٩٧٥ .

(٧) P.H.C.H. de Lauwe - La culture et le pouvoir.
 p. 90 stocke. Paris. 1975

(٨) د. ياسين خليل (المفهوم الحضاري للتراث العربي) مجلة
 آفاق عربية - بغداد - العدد ٨/١٩٧٦ .

(٩) تطور الايديولوجية العربية الثورية - للمؤلف - ص ٨ - ٩ .

فإن (الثقافة) بمفهومها الحديث تعني^(١٠) (ذلك الكل
 المركب الذي يحتوي على المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق
 والقانون والعرف ، وكل القدرات والعادات التي حصل عليها
 الإنسان كعضو في المجتمع) .

كما تعني^(١١) (التنظيم لأنماط السلوك والأفكار والمشاعر
 التي تعتمد على استخدام الرموز) .

وبتحديد أشمل وأدق ، كما جاء في تعريف ريتشارد ماكيون
 (R. MeKeon) حيث يقول^(١٢) :

« يمكن تعريف الثقافات بكونها انماطاً ناشئة عن تصور
 تأريخي . ومن ناحية أخرى ، كمجموعة من العادات يعترف
 بكونها مقبولة في جماعة معينة ، كما يمكن متابعة آثارها في كل

(١٠) تعريف E.B. Taylor في كتاب (الثقافة البدائية)
 عن كتاب (الثقافة والتربية) للدكتور حسن الفقي - الاسكندرية
 ١٩٧٠ .

(١١) تعريف لسلبي وايت (L. WHITE) من كتاب (الثقافة
 والتربية في العصور القديمة) . للدكتور وهبه سمعان ، دار
 المعارف القاهرة . ١٩٦١ .

L'originalité des cultures. Unesco. 1953. p. 11. (١٢)
 (كتاب اصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي ، لمجموعة
 من الكتاب العالميين باشراف اليونسكو) .

دوات النشاط الإنساني كالسياسة والحقوق والفن والدين
والعرفة العقلية بمختلف صورها » ٠

وعلى ضوء هذا التعريف يتبيّن أن الثقافة تعبّر عن صور الحياة الميرية للجماعة ، وأتها من الامة كالثمرة من الشجرة ،
وأن (الحضارة) تشكّل (المعنى الاتريولوجي) أو المدلول الاجتماعي للثقافة كما ان (الايديولوجية) هي مظهر من مظاهر الثقافة يعبر عن التوتر القائم بين التصورات والممارسات . فداخل اطار الثقافة يوجد نوعان نقبيان من الايديولوجية : (التقليدية والتتجديدية) ، كما توجد أيضا الثقافة الامتنمية والثقافة الارستقراطية والثقافة الديموقراطية والثقافة القومية والثقافة الاشتراكية ٠

و داخل اطار مفهوم (الثقف) ، يمكن أن نميز بين النموذج (التقليدي) الذي يعمل في قطاع الثقافة وكأنه مستقل عن الحياة الاجتماعية وبين (الثقف العضوي) الذي يربط بين مضمون عمله الثقافي وبين حركة المجتمع وصيرورته التاريخية^(١٣) ، اي بين الثقافة والشخصية القومية ، ان البنيان الثقافي لا يمكن ان يستقل عن البنيان القومي لأن الثقافة بعد من ابعاد الحياة بوجه عام ، ومن ابعاد (الحياة القومية) بوجه خاص ٠

(١٣) Gramsci dans le texte. Ed. Sociales. p. 579
Paris. 1975.

* عناصر الثقافة واتجاهاتها :

اذا كانت الثقافة ، كما رأينا ، كلاماً مركباً . فيما هي العناصر الداخلة في تركيب هذا الكل ؟ ثم ما هي الاتجاهات التي تميز الثقافة كتيار حي ، اي ككل مركب متحرك متتطور - نام شأن الظواهر الحية كلها ٠

ان علماء الاجتماع يتحدثون عن (انماط ثقافية) وعن (دينامية الثقافة) . كذلك فان (الانماط الثقافية) ، التي تتحقق الانتظام في الفكر وفي السلوك ، تتالف هي ذاتها ، من (السمات الثقافية) التي تعتبر (ابسط عناصر الثقافة وأصغر جزء يمكن ان تقسم اليه الثقافة بعية تحليلها)^(١٤) ، كذلك فان الكلام عن (عمليات النمو الثقافي) ، يعني الكلام عن انماط التحولات المرتبطة بالتفاعل ، و (التعارض ، والتبادل) بين تلك السمات . فالثقافة ليست مجرد (اتجاج) ، بل هي ايضاً خلق وحركة وابداع وانتشار . ان تحليل (الدينامية الثقافية) يشكل مركزاً من مراكز اهتمام الباحثين المعاصرين ، كتحليل الروابط والعلاقات بين ثلاثة انماط : (نمط التحولات المادية ونمط التحولات في البنى وال العلاقات الاجتماعية - ونمط التحولات النفسية - الاجتماعية) ٠

(١٤) د . وهيب سمعان . الثقافة والتربية في المصور القديمة .

جزئية تستند عناصرها من شتى الميادين الطبيعية والسيكولوجية والاجتماعية والقيمية ، ومن مختلف البني السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد ميز (جون هونيكمان) ثلاثة محتويات رئيسية للثقافة^(١٦) :

أ - (المحتوى التكنولوجي) المرتبط بالوسائل التي يستغل بها الإنسان العالم المادي .

ب - (المحتوى الاجتماعي) الخاص بالنظام الاجتماعي والأنشطة والمؤسسات .

ج - (المحتوى الدييدولوجي) المتعلق بالتقدم المعرفي للثقافة وبالمعتقدات والقيم .

كما أن هناك مجالاً للتمييز بين (العناصر الشعورية والعنصر اللاشعورية) في التركيب الثقافي حيث تبرز أهمية (التراث) وكذلك أهمية الرموز والقيم والطوابع الثقافية ، فالمخرج العربي يفكر برواية عظيل بحساسية جمالية في حين أن العربي يتناولها بحساسية خلقية^(١٧) .

(١٦) في كتاب (عالم الإنسان) نيويورك (١٩٥٩) . عن كتاب د حسن الفقي (الثقافة والتربية) .

(١٧) مالك بن بنى (مشكلة الثقافة) . مصدر سابق .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نميز أولاً بين ما هو عام وما هو خاص في الثقافة^(١٥) . (فعموميات الثقافة) ترتبط بالعادات والتقاليد والأفكار واللغة وانطباط السلوك المشتركة . وهي عامة بين أبناء الثقافة الواحدة .

اما (خصوصيات الثقافة) ، فهي التي تتعلق باعضاً من الجماعات المهنية والطبقات الاجتماعية والجنس (ثقافة الفرد والفتاة والطبقة اي ما نسميه التخصص الثقافي) الثقافة الفلسفية والتقنية والصناعية والعمالية .

ومن (العموميات والخصوصيات) ، تتشكل ما يسمى به (لنتون) : (نواة الثقافة) . اما العناصر (المحيطية) فهي ما يطلق عليه اسم (العناصر البديلة) وهي التي تشكل العوامل المساعدة في تطوير الثقافة ونموها كالأفكار الجديدة والمواجع الجديدة من الأذواق والتطورات (كتعليم المرأة وتشغيلها . . .) وبلاحظ (ريتشارد ماكيون) أن (ائتلاف الخاص والععام) في الثقافة يتمثل في تاريخ كل الأمة التي كان لها حضارة رائعة واتصالات كثيرة بالعالم الخارجي .

ثم ان تحليل التركيب الثقافي يمكن أن يكشف عن تراكيب

(١٥) رالف لنتون R. Linton (دراسة الإنسان) ترجمة الناشر . بيروت ١٩٦٤ .

في التكوين الثقافي العام ، أي (التكوين القومي للثقافة) • فالثقافة هي أكثر من مجموع عناصرها • فنحن نستطيع أن نتكلم عن (نماذج ثقافية) هي ، كما يقول (ماكيون)^(٢١) (منظومات اقوال وافعال – تتعلق بصور السلوك والتفكير التقليدية المألوفة) • وهي التي جعلت الأغريقين يتسمون بالديموقратية والثقافة الفلسفية ، والرومان كمشرعين ، والعرب أصحاب رسالة وانفتاح على الثقافات وكذلك جعلت (اللغة العربية اللغة الوحيدة في العالم مع الاغريقية والصينية ، التي احتفظت بتراثها الأساسية منذ العهد القبلي حتى القرن العشرين)^(٢٢) •

* الثقافة والشخصية :

في كتاب « ملاحظات نحو تعريف الثقافة » ، يقول الشاعر اليوت (T.S. Elliot)^(٢٣)

« انك لا تستطيع أن تبني شجرة ، وإنما تستطيع أن تزرعها وتعهدها وتنتظرها حتى تنضج .. وعندما تكبر لا تستطيع أن تشکو إذا وجدت أن بذرة البلوط قد انبت شجرة بلوط » .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٢٢) الفكر العربي في معركة النهضة ، للدكتور انور عبد الملك . دار الإداب – بيروت ١٩٧٤ ص ٢١ .

(٢٣) ترجمة د . شكري عياد . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ص ١٤٢ .

فالثقافة هي إلى حد كبير (تاريخ المجهود الحيوى من أجل التكيف المتواتر الامتنان الذي نحياه كأفراد واجسام وطبقات)^(١٨) و (اللاشعور الجسعي) يلعب دورا هاما في بلوحة العنصر الثقافي الثابت عبر تطور الأمم .

فأدوار الثقافة الهندية المختلفة (العصر الفيدي والابتساد وعصر المصلحين المحدثين) استلهست جميعها روحا تراثية واحدة تستثل في (فكرة الشسول والتسامح والوحدة المعاشرة) ، كما يشير إلى ذلك (ب . ل . اتريا) في بحث عن الثقافة الهندية^(١٩) .

في حين انتا نلاحظ العنصر الجمالى هو الذي اجتذب اليابانيين الى البوذية . أي ما يتجلى في بوذا من (هدوء وكمال)^(٢٠) .

ومهما يكن من أمر تعدد عناصر الثقافة وتنوع اتجاهاتها ، فإننا نستطيع أن تبين بسهولة أن تقدم المجتمع نحو التعقيد والتزايد في البني ، يصاحبه ظهور مستويات ثقافية متعددة ، وغنى في العناصر وتنوع في الاتجاهات ضمن اطار الوحدة العميقة

P. Ricœur. Philosophie de la volonté. p. 82 (١٨)

Paris. 1948.

(١٩) اساسة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي ، اليونسكو . ص ١٣٥ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

الثقافة داخلة في المعاني الاربعة التي استخدمها (شيشرون) ^(٢٦)
وهي التآم صفات الشخصية والدور الذي يلعبه الشخص في
الحياة ، والطريقة التي يبدو فيها الشخص للآخرين ، والحقائق
المميزة) . وكذلك ايضاً في المفاهيم الحديثة للشخصية ^(٢٧) .

(التنظيم المتكامل لجميع الحقائق المعرفية والعاطفية
والنزعية والجسمية) . و (توافق الفرد مع بيئته) ، و (العنصر
الثابت في السلوك) ، و (المهرم الذي يتكون من (الذات
المادية) و (الذات الاجتماعية) و (الذات الروحية) و (الانا
الخالصة) . الى آخر هذه التعريفات . حتى ان بعض علماء
الانתרופولوجيا (علم الانسان) أكدوا تأثر الفرد بالثقافة وتشكل
الشخصية الى حد ذهابها معه الى اغفال الفروق الفردية
 تماماً ^(٢٨) .

فكمما اننا تكلم عن (ثقافة قومية) ، كذلك يمكن أن تتحدث
عن (شخصية ثقافية) . فعلماء الاقوام وعلماء الانسان ، استطاعوا
أن يتبنوا في أكثر المجتمعات بدأءة ، بعدها ثقافياً للشخصية

(٢٦) (سيكولوجية الفروق الفردية) د . يوسف الشيبي ود . جابر
جابر عن كتاب (Personality - Allport) دار النهضة
العربية ١٩٦٤ ص ٣٣٦ .
(٢٧) المصدر نفسه .
(٢٨) المصدر نفسه .

وهكذا ايضاً في البناء السياسي والاجتماعي واليديولوجي ،
نجد ، كما هو الحال في (البيان الثقافي) ، أن (بعض هذا
البناء تشيد ، وبعضه نمو ، وبعضه آلة واكتساب ، وبعضه نام
مع ثقافة الامة وشخصيتها وهو بهذا الاعتبار مختلف عن البناء
الثقافي للامم الأخرى) ^(٢٩) .

ان العلاقة بين الثقافة والشخصية ، تؤكد حقيقة اساسية ،
وهي أن التداخل العيق بينهما يصل الى درجة تبدوان معاً
كما لو انهما متادفتان . سواء على الصعيد الفردي (شخصية
الفرد) أو الاجتماعي (شخصية الامة) .

فمنذ استخدمت كلمة (ثقافة) لأول مرة ، كان مدلولها
يشير الى عملية (تنمية الافكار داخل الشخصية الإنسانية) بعد
أن كانت تدل على (تنمية المزروعات داخل الأرض) . وفي حين
أن (الصفة التي تيز الحضارة هي قابليتها للانتقال والانتشار بين
الامم ، فإن الثقافة تختص بكل أمة) ^(٣٠) .

وكذلك كلمة (شخصية) ، فإن الاتجاهات في تعريفها
وتحديد معانها منذ استخدمها (شيشرون) لأول مرة في القرن
الاول قبل الميلاد ، إنما تتطوّي على مفهوم الثقافة ايضاً . لأن

(٢٩) نفس المصدر ، ص ١٤٢ .
(٣٠) ساطع الحصري (اراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة)
بيروت ١٩٥٠ ص ٤٨ .

العلاقة بين هذين المفهومين المتكاملين : (الثقافة القومية) و (الشخصية الثقافية) فملاحظة^(٢٩) (اختلاف الثقافات باختلاف الانماط المكونة لها) وأن النمط الثقافي القومي اليوناني يختلف عن الروماني ، والعربي عن الفارسي ، والهولندي عن الامريكي ، والانجليزي عن الالماني والفرنسي والروسي^{٠٠٠}) ، وإن هناك (وحدة وتماسكاً بين الانماط الفردية المكونة للنمط القومي) . كل ذلك قد جاء نتيجة لتطور الاهتمام بالفارق بين القوميات منذ (موتسكيو) في كتاب (روح القوانين) والمؤرخ الفرنسي الشهير (توكفيل) ، ثم البحوث العلمية المنهجية والتجريبية المعاصرة .

علماء الآتروبيولوجيا الاجتماعية يسعون ، عن طريق ملاحظة الفروق في اللغات والمعارف والمنطق والسلوك والقيم والسلطة ، إلى فهم (المكونات الثقافية للشخصية القومية)^(٣٠) .
ثم ان التعريف الاجرامي والنقدى للثقافة^(٣١)
التوع و التعدد الثقافي بالوحدة التي يتجه إليها) ، ويميز بين

(٢٩) د . وهيب سمعان . (الثقافة والتربية في العصور القديمة)
القاهرة ١٩٦١ .

(٣٠) السيد ياسين (الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلي
ومفهوم العربي) القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٨ .

(٣١) Cecconi - O. Croissance économique et sous
développement culturel. PUDF 1975. p. 148.

الاجتماعية ، وهذا بعد الثقافي يزداد اتساعاً وعمقاً كلما كان التراث القومي غنياً إلى درجة يصبح معها من الطبيعي والمشروع أن تتكلم ، في حالة كحالة الأمة العربية وغيرها من الأمم التي كانت لها مساهمات حضارية كبرى في الماضي ، كالصين والهند والأغريق . . . عن (شخصية حضارية) . فالامة التي كانت جاهلتها (بطولة وشرا) . وكان (اسلامها) ثورة حضارية وروحية واجتماعية ورسالة إلى العالم ، وكان انتشارها في المكان تخلidia لذلك الزمان الذي شهد افتتاح النفس العربية على الصورة والعلم والابداع ، وافتتاح العقل العربي على آفاق المعرفة وارتياده لكل مجاهلها واغناها لتراثها . . ان هذه الأمة التي استطاعت حتى بعد هبوط الحياة العربية وهيسنة الظواهر السلبية ، من تجزئة واستعمار وتخلف . . أن تحصن شخصيتها الثقافية وأن ترد محاولات طمسها وتشويهها ، وأن تلوذ بالقرآن كحافظ للسانها ومبر عن عقيتها وعن اصالتها ، وأن تنهض من مرحلة الاتحطاط ، وأن تشق طريق ابعائها الحضاري بأساليبة فكرية وانسجام رائع مع روح تراثها ومع طبيعة العصر . . .

ان امتنا العربية تمثل بهذا كله ، النموذج الحي لوحدة الثقافة والشخصية . فيما في حالتها متراجفات .

وقد جاء ادراك العلاقة بين الثقافة والشخصية من خلال فهم

الثلاثة الأساسية للشخصية القومية^(٣٣) : (مفهوم البناء الأساسي للشخصية ومفهوم الطابع الاجتماعي ، ومفهوم الشخصية المتوازية أو النمطية) ، تؤكد هذه العلاقة الجدلية بين (الثقافة والشخصية) . فالمفهوم الأول (البناء الأساسي للشخصية) ، يقوم على تقرير (تشابه الناس الذين يتبعون إلى ثقافة معينة) . وعلى ظاهرة (انتقال الثقافات من جيل إلى آخر) .

والمفهوم الثاني (الطابع الاجتماعي) ، يقوم على تأكيد الدور البارز الذي تلعبه (الأفكار الدينية والسياسية والفلسفية) في التفاعل بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية والإيديولوجية الذي يؤدي إلى نشأة الطابع الاجتماعي للشخصية .

كما أن المفهوم الثالث (الشخصية النمطية) الناجمة عن (أكبر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية) . فسواء ما يتعلق بالجانب السكוני من الشخصية أو الجانب الديني المتحرك (النضالية والافكار الثورية) أو ما يتعلق بالعمومية والخصوصية (القومي والقطري) أو بالأنماط الفرعية للشخصية القومية (كالشخصية البدوية والريفية والحضرية) أو (بالبعد

(٣٣) نفس المصدر .
(٣٤) (ادوار هاليت كار) . (ما هو التاريخ ؟) ترجمة عقل وكيلي . المؤسسة العربية - بيروت - ١٩٧٦ ص ٢٨ .

(ثقافة الإنسان المخلوق في (عالم صغير ثيوغرافي ومحدود) ، ثقافة الإنسان الوسطى ، وبين ثقافة القرن العشرين (ثقافة إنسان عالم التردد الوسطى ، وبين ثقافة القرن العشرين (ثقافة إنسان مهندس في عالم غير محدود) حيث القدرة النظرية للعلم والقدرة المتنامية للتقنية ، ويقرر أخيراً أن (التبادل يعزز العامل الموحد للثقافة) وأن هناك (جدلاً ايجابياً بين العناصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية واللغوية والفلسفية والسيكولوجية والتربية للثقافة) ، وأن العلاقة السببية بين الديناميات الثلاث : (التقنية - الاقتصادية) و (الاجتماعية - الاقتصادية) و (الاجتماعية - الثقافية) تأخذ شكل (تحرك وتحول كلي) . وقد ساعدت العرب العالمية الثانية على تعزيز الاهتمام بدراسة (سمات الشخصية القومية) لدى القوات المتحاربة ، كحاجة من حاجات كسب الحرب . ومن أجل اكتشاف (نمط الشخصية اليابانية) عمل الاترپولوجيون الامريكان الى دراسة (الكتب المدرسية والمجلات الشعبية والكتب السياسية وكتب التاريخ والادب والافلام السينمائية اليابانية ، وطبقوا الاختبارات النفسية على الاسرى والماجربين اليابانيين ، واجروا مقابلات معهم ، ودرسوا سيرهم الذاتية)^(٣٥) .

ويمكن أن تبين على ضوء تأثير هذه الدراسات أن المفاهيم

(٣٥) السيد ياسين ، نفس المصدر .

الاجتماعي والوسط السائد للاتصال في الوطن العربي) ، وبالإبعاد التاريخية والضالية والحضارية للشخصية نلمس في هذا كله الطبيعة الجدلية للعلاقة بين الشخصية والثقافة . وإذا كان المفهوم التقديم للشخصية القومية المبنية على الفروق البيولوجية ، قد سُفِّهَ منذ زمن بعيد ، كما يقول (ادوار كار)^(٣٤) .

ييد أن (من الصعب انكار الفروق في الشخصية القومية الناتجة عن خلفيات ثقافية مختلفة) .

فالثقافة تشكل الجانب الاهم المميز من الشخصية . وهي (مسؤولة عن الجزء الاكبر من محتوى الشخصية وعن طريقة تنظيم محتوى الشخصية^(٣٥)) . والعلاقة بينهما ذات طابع دينامي ، فالفرد (يبدأ بتبني معاير الثقافة ثم يتصرف في مرحلة ثانية تصرفا معاكسا ، ثم يعدل فيها .. وهكذا تصبح جزءا من عملية تطوير الشخصية) .

والعالمة الاتروبولوجية الامريكية (BENEDICT) تربط بين نمط الشخصية وبين محاور الثقافة (اي بالاتجاهات والمعتقدات الرئيسة السائدة في الثقافة) . وتعتبر أن (الشخصية تكون نتيجة لتفاعلها مع هذه الاتجاهات وتمثلها للقيم ولأساليب

^(٣٦) د . حسن الفقي (الثقافة والتربية) مصدر سابق .

السلوك الثقافية المختلفة)^(٣٦) .

ولاشك بأن علم نفس الطفل يكشف لنا عن هذا الجانب التكويني من شخصية الطفل التي تتسم مراحلها بهذا التفاعل المتضاد مع (اللغة والافكار والرموز وانساط السلوك الثقافية)^(٣٧) .

وكذلك علم الاجتماع الذي يتصدى لظاهرة انتقال الثقافة عبر الاجيال وتكونها لما نطلق عليه اسم (اللاشعور الجماعي) و (الوجود الاجتماعي) ، وكونها كتيار متعدد ومتصل ، تشكل حلقات موازية للمراحل التي يمر بها التطور الاجتماعي . فهي ، (روح الحضارة) كما ان الحضارة هي (روح المدينة) ، وكما ان الرسالة هي (روح الثقافة) .

فإذا كانت (عموميات الثقافة المكتسبة في مرحلة الطفولة) في مرحلتي التمثل والتكييف الثقافي – تدخل في تكوين شخصية كل فرد) ، كما يقول (رالف لتون) (R. Linton) ، فإن دراسة رايزمان D. Riesman في كتاب (The Lowly Crowd) ، للنتائج النفسية والاجتماعية للتحول من المجتمع الصناعي الى المجتمع الاداري ، قد جعلته يقرر بأن (شخصية الرائد تشكل

Ruth Benedict (Patterns of culture) p. 42.

^(٣٧) راجع كتب العالم السويسري (جان بياجه) حول (نشأة الذكاء عند الطفل) و (سيكولوجية الذكاء) .

العربي ومغربه ابان السيطرة العثمانية والاحتلال الغربي ، وما تزال تتعرض لها على ايدي الاحتلال الصهيوني في فلسطين .

(ان عملية اجتثاث اصول الثقافة وفصل الشعوب المستعمرة عن تراثها القومي ، هو نهج استعماري لتفكيك الشخصية القومية)^(٤٢) .

وهذا النهج الاستعماري قد فشل في الحيلولة دون يقظة الامم ودون تحررها ونضالها من أجل استعادة وحدتها . ولكنها ترك آثارا وبقايا تتجلّى في ازمة الثقافة المجردة والثقافة المسنوبة الروح ، الضعيفة الصلة بتراث الامة غير المعبرة عن شخصيتها ، المتعالية على جماهيرها ، التي تمثل مصالح جزئية ونظارات ضيقة لا تتسع بشمولها ولا تذهب بعمقها الى درجة التفاعل مع القضية القومية ومع حركة التحرر والنهضة في عالم القارات الثلاث التي تعرضت وما تزال بعض اجزائها تتعرض للسيطرة والتحكم الاجنبي وللاستغلال بمختلف اشكاله المرتبطة بطبيعة النظم الاستعمارية .

لذلك كان من الطبيعي ان يقترب تحرر الامة من الظاهرة

(٤٢) محمد عزيز الحبابي (من المتنقل الى المنفتح) ترجمة برادة القاهرة ١٩٧١ من كتاب Bosquet. A. Anthologie de la poésie américaine. Paris 1956)

بأنماط التطبيع الاجتماعي) التي تعكس بدورها (اتجاهات الثقافة)^(٣٨) .

وعلى هذا الاساس ، كان التأكيد على أن (الثقافة للامة كالشخصية للفرد) وان (لامة شخصيتها الثقافية كما للفرد شخصيته التي يتميز بها)^(٣٩) ، وان (الثقافة تعبر عن حياة حقيقة تتفاعل مع الشخص وتؤثر فيه)^(٤٠) ، كما انها (تعبر عن روح الامة ومرتبطة بحياتها وبدورها واقعها) ، وانها (حافر عام في شخصية الفرد) ، وبالتالي فأن كلًا منها شرط لوجود الآخرين ولنسوها ولاصالتها . وعلى ضوء ذلك كله نستطيع أن نتبين مدى التشويه الذي يلحق بالثقافة عندما ينقطع نسغ الحياة الذي يربطها بشخصية الامة . فتصبح مجردة^(٤١) . ثم الوهن الذي يصيب الشخصية القومية عندما تضمر الثقافة .

وليس من مثال يفضح المؤامرة المزدوجة على الثقافة وعلى الشخصية القومية ، من عملية طمس الهوية القومية والقضاء على اللغة العربية التي تعرضت لها الامة العربية في مشرق الوطن

(٣٨) د. حسن الفقي (الثقافة والتربية) مصدر سابق .

(٣٩) د. علي الوردي . دراسة في طبيعة المجتمع العراقي . بغداد ١٩٦٥ ص ٣٦ .

(٤٠) ميشيل عفلق - في سبيل البحث ط ١٢ ص ٣٥ - ١٣٨ .

(٤١) نفس المصدر (التفكير المجرد) . ص ١٣٥ .

عليه ، كعامل وكدافع جديد للابداع) على حد تعبير (دولوف) في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه (الثقافة والسلطة) . فهو يقول^(٤٦) :

(ان في بعض البلاد المتخلفة اقتصادياً ، توجد ثقافات مهددة بالفناء تستثير باهتمامنا ، ليس بسبب غنى الثروات الثقافية التي أنتجتها ، بل بما تسلكه من القدرة على المساهمة في انشاء عالم جديد) .
فلم يعد في ظل السياق التاريخي الجديد لبلدان العالم الثالث مجال لنظرية (الثقافة للثقافة) لأن (الثقافة لا يمكن ان تكون الا للامة) أي لتحررها ولوحدتها وتقدمها ولابعاثها الحضاري .

والاطار الثقافي في مثل اوضاع هذه الامم التي ابتعدت عن تراثها والتي فرضت عليها التجزئة والتخلف ، يقدر ما هو عامل ضاغط لاختصار الزمن فهو ايضا يحمي الشخصية من الضياع ، انه يعني الوجودان الاجتماعي ويربط الافراد والجماعات برباط تأريخي وثقافي يجعل منهم شخصية موحدة متجانسة ملتحمة^(٤٧) . والثقافة تكون في ظل مراحل النهضة القومية

P. H. ch. de lowwe - la culture et le pouvoire. (٤٦)

op. cit., p. 10.

G. Rigaud - la culture pour vivre. Gallimard. (٤٧)

p. 83. Paris, 1975.

الاستعمارية بوجه مباشر نحو تحرر الثقافة من عمليات الاغتراب والتشويه الثقافي ، و نحو تحقيق التوازن الحي بين الصلة بالتراث والصلة بروح العصر . حتى ترتبط الثقافة^(٤٣) (بالحركة المبدعة داخل مختلف ميادين الحياة الاجتماعية) المتوجهة نحو التطور والنمو والتعويض عن عهود القهر والتخلف التي فرضتها الارادة الاجنبية . فالثقافة اذن تشكل عنصرا هاما من عناصر بعث الشخصية القومية لا بل اتها هي (الصناعة الثقيلة الحقة في المجتمع ، لأنها صناعة الصناعات ، بل هي صناعة صانع الصناعة : الانسان) . وهي (قوة كامنة في حركة تطور الامة و فعل خلاق فيها)^(٤٤) .

اذن (لكل امة ثقافتها ، والثقافة في الامة تتصل بمقوماتها الاساسية . أي بشخصيتها)^(٤٥) ، واذا كانت المرحلة الاستعمارية قد حملت معها نوعا من (العنصرية الثقافية) تجاهلت معها كل حضارة غير (الحضارة الاوربية) . فإن انقضاء هذه المرحلة ، قد كان عاملا في بروز ظاهرة الاهتمام بالثقافات القديمة ، وفي تجديد النظرة الى (التراث الثقافي) الذي (ينبغي المحافظة

P. H. ch. de Lawwe - la culture et le pouvoire. (٤٣)

op. cit. p. 90.

(٤٤) محمود امين العالم . (الثقافة والثورة) ، دار الاداب . ١٩٧٠ . ص ١٦٣ - ١٦٧ .

(٤٥) أنور الجندي (معالم الفكر العربي المعاصر) ، ص ١٤٨ .

واده تغير ، وموقف حي من المشكلات الكبرى التي طرحتها التحديات المصيرية على الشخصية الفردية والقومية . وان (احدى الاشكال الخاصة للنضال الثقافي تكمن في التفتيش عن الهوية القومية)^(٥٠) ولا شك في أن (الثقافة هي دوما الضامن للديمومة الروحية عبر الاجيال والى حد بعيد وسبب الاضطرابات والانقطاعات في التاريخ)^(٥١) كما أن الثقافة الى جانب العوامل الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية ، تشكل العامل الحاسم في تطور المجتمعات ونهضة الأمم .

* الثقافة العربية :

اذا اردنا تحديد الثقافة القومية لشعب ما ، جاز لنا ان نقول : (انها الاساليب التي يعبر بها عن شخصيته . والطرق الخاصة التي يتسم بها تصرفه ازاء الظاهرات الانسانية والروحية والطبيعية)^(٥٢) فيما هي (الثقافة العربية) التي تعكس طريقة الامة العربية في التعبير عن ذاتها . والتي هي حاضرة ومعاشه في

H. de varine. la culture des autres. seuil. paris. (٥٠)

1975. p. 238.

A. Reszler. le marxisme devant la culture Paris. (٥١)

1975. p. 143.

٥٢ م . ع . الجبائي (من المنفلق الى المفتح) . ترجمة . م . براءة القاهرة ١٩٧١ ص ١٣٧ .

مزوجة الى حد بعيد بالحياة . فهي ليست مجرد تعبير عن الشخصية ، بل هي في الوقت نفسه بعث لهذه الشخصية وتربيتها للجماهير . وكما أن (الوحدة القومية للشعب الافريقي اعتمدت على الثقافة الافريقية وكذلك وحدة الشعب البولوني خلال القرنين الماضيين)^(٤٨) . كذلك فان القرآن لعب دورا حاسما في الحفاظ على الشخصية العربية بالرغم من كل تحديات مرحلة الانحطاط منذ زوال الدولة العربية حتى بدء النهضة الحديثة . وكان درعا لlama العربية في مواجهة الاستعمار والحملات الصليبية .

ويمكينا ان نلاحظ حتى على صعيد الدول المتقدمة والمجتمعات التي استكملت وحدتها القومية منذ زمن طويل ، كيف ان الثقافة تصبح في الظروف العصيبة وفي مراحل التحول (كما حدث اثناء الحرب العالمية الثانية وفي المرحلة التي تلتها مباشرة) ، أشبه بالنبض المعب عن حركة القلب . لأن الثقافة تصبح أرقى درجة من درجات المعانة للمأساة القومية والتحسس بتناقضات العصر وبأزمة الحضارة .

(الثقافة اذن ليست مطلقا)^(٤٩) ، بل هي ساحة نضال ،

(٤٨) نفس المصدر .

(٤٩) نفس المصدر .

بخلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد) . ذلك أن التبعثر والتشتت الثقافي الذي نلاحظه في الواقع العربي اليوم ، إنما هو صورة مرحلة تأريخية قيد الانقضاء والزوال من حياة الأمة العربية . و (الثقافة العربية) بالمعنى الدقيق ، هي دليل عمل يضيء امام الأجيال العربية طريق النهضة القومية ، طريق الوحدة العربية ، طريق الحرية ، طريق التطور اي طريق تحقيق الذات القومية وخلق المجتمع العربي الجديد .

لابد اذن أن نميز بين الثقافة العربية كنتاج اجتماعي ومحصلة للتطور القومي من جهة . وبينها كعنصر فاعل واساس في التحول الاجتماعي وفي الحركة المبدعة داخل مختلف جوانب ومبادرات الحياة القومية .

وبهذا الاعتبار ، فانتا نستطيع أن نتكلم عن (بنىان) للثقافة العربية يشكل (التراث القومي) العنصر الاساس الثابت فيه . الى جانب الكلام عن (الدينامية الثقافية) . اي عن التبدل في العلاقة بين الانسان العربي وبين الطبيعة من حوله والعلاقة بين الامة العربية واقطاراتها ، الذي يلعب فيه العامل (الايديولوجي) دورا هاما .

وعلى ضوء ذلك يتضح أنه لابد أن ننظر الى الثقافة العربية من خلال كونها (ارثا حضاريا) من جهة ، وكونها تمهدنا

مختلف جوانب حياتنا القومية : في العمل والفراغ ، داخل الاسرة وخارجها وفي طريقة استخدام الزمن ، وفي تكوين التصورات والتطبعات ، وفي الاتاج والنضال ونظام القيم . . . والتي تأخذ شكل محصلة ومحرك في آن معا ، للتغيرات الأساسية في التطور الاجتماعي ؟

ان الجواب على هذا السؤال لابد أن يأخذ بعين الاعتبار (واقع) الثقافة العربية اليوم في علاقتها بالبعد التاريخي لهذه الثقافة ، اي بالماضي . وكذلك ايضا بآفاق المستقبل .

فالثقافة العربية اليوم ، هي امتداد للثقافة العربية الاسلامية في الماضي ، وهي مخاض ثورة ثقافية تسجم مع متطلبات مرحلة النهضة القومية التي تجتازها الامة العربية .

ان الثقافة العربية هي عنوان لشخصية الامة العربية . وهي منها كالشجرة من الارض . ولا يمكن أن نتكلم عن (ثقافة عربية) دون أن تأخذ بعين الاعتبار (الامة العربية) عبر مراحل تطورها ، و موقف هذه الامة من ذاتها ومن العالم عبر تاريخها العريق الطويل . ودون أن نربط (ديمومة الامة) بصيرورتها . اي بجدل العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل .

فالثقافة في الوطن العربي في المرحلة الراهنة^(٥٣) (تتصل

^(٥٣) مالك بن بنى (مشكلة الثقافة) . دار الفكر - بيروت ١٩٧١ ط ٢ .

لبناء حضاري جديد للإنسان العربي وللامة العربية من جهة
أخرى .

وأن التوتر بين طرفي المعادلة هو علة ما نطلق عليه في المرحلة
الراهنة صفة (الازمة الثقافية) التي تأخذ شكل صراع بين قطبي
الزمان : الماضي والمستقبل ، بين الخوف على الماضي كتراث ،
والخوف من المستقبل كأطلالة على المجهول ، بين المحافظة
والتجدد ، بين مصالح التجزئة والتطلع إلى الوحدة ، بين الدافع
القطري والدافع القومي ، بين مصلحة القلة ومصلحة العدد
الاكبر من أبناء الأمة ، بين الانغلاق والتعصب وبين الافتتاح
والتفاعل مع العالم ، بين الافتتاح الأصيل والضياع في الآخر .
يدأن (ازمة النسو) هذه ، إنما تعكس طبيعة مرحلة من
مراحل التطور التي اصطلاح المفكرون العرب على تسميتها
بمرحلة النهضة العربية .

ومن خلال المعاشرة الفكرية والنسائية ومعارك الصراع
الايديولوجي وحركة المصير القومي ، تتبلور اليوم الثقافة العربية
المغبرة عن هذه المرحلة التاريخية .

* الثقافة العربية والتراث القومي :

اذا نظرنا الى حياة العرب في الجاهلية ، نلاحظ ثمة ظاهرة
بارزة ، الا وهي الثروة اللغوية التي تميز بها اللسان العربي ،
والشعر الذي بلغ عصره الذهبي مع (المعلقات العشر) .

٨٠

ان اللغة العربية في تلك المرحلة ، كانت تملك ثروة من
الكلمات أغنى واسع من حدود الحاجة العملية ، والذى يتناول
بالدراسة التركيب اللغوى والاصول الحدسية والاشتقاقات
المنطقية للكلمات والمعانى ، في لغة الجاهلية ، يدرك حقاً بأن الامة
العربية قد عبرت عن عبقريتها في لسانها خلال هذه المرحلة^(٥٤) ،
لذلك تجلت الثقافة العربية الجاهلية في (جملة الرموز) التي تدل
على معانٍ انسانية ، اي كل ما ينبع عن النفس ثم يعود فيشترك
في انماطها ويكشف عن آفاق انسانية متسامية^(٥٥) . ومن العبث
أن نكتفى بقانون التكيف لتحليل هذه الظاهرة التي تسيّر الحياة
العربية في الجاهلية . لأن هذا القانون بما ينطوي عليه من عملية
التمثيل assimilation والتتطابق accommodation انما يكتفى
بتفسير الجانب الحيوي من الوجود ومن الثقافة . في حين اننا
نلاحظ بالنسبة الى الجاهلية ، أن ظاهرة الثقافة كما تجلت في
اللسان العربي تنطوي على عطاء حضاري يتتجاوز (الحياة) الى
(معنى الحياة) والى (الرسالة) . وعلى هذا الاساس ، نستطيع
ان نفهم لماذا جعل الشعر حياة العرب جديرة بأن تحيى ، بالرغم من
كل قسوتها وجدتها ، وبالرغم من (عزلة المكان ووحشة الزمان)

(٥٤) انظر (زكي الاسوzi) المؤلفات الكاملة - المجلد الاول دمشق
١٩٧٣ .

(٥٥) نفس المصدر . المجلد الثاني (رسالة المدنية والثقافة) .

والخضوع لنفوذ القوى المحيطة بالجزيرة العربية والانقسام الطبقي الحاد ، الى مجتمع توحده عقيدة التوحيد ، وتحررها اراده التغيير ، وتجاوز اقسامها روح العدالة . فالاسلام تجربة عميقة خلقت العرب خلقاً جديداً ، وفتحت عقولهم على مجاھيل العالم فرادوا ميادينها المختلفة وحققو مساهمات اصيلة في تطوير الفلسفة والعلوم والفنون والتشريع والعمارة والحضارة . كما فتحت نفوسهم على قيم الحياة الروحية وعلى الشعور بالرسالة والارتفاع الى مستوى تحقيقها .

وهكذا فان الثقافة العربية الاسلامية اصبح لها شخصيتها المحددة المتكاملة ، المتعددة في الماضي الى ابعد من حدود ما ورثته من الجاهلية من لغة وشعر وما اتسمت به الشخصية العربية من قيم البطولة ، لأن هذه الثقافة هي بدورها (وريثة الثقافات القديمة المصرية والفينيقية والآشورية والبابلية) . وقد تميزت (عن الثقافات الغربية والشرقية) آنذاك ، بكلونها قد (تجاوزت المراحل السابقة لتطور الفكر البشري التي اتسمت بالسحر وبالتركيز على العالم الآخر) . فالثقافة العربية الاسلامية (مشبعة بتأثيرات العلوم والصناعة) . وقد تمثلت هذه الثقافة (في تجربة شملت دورة كاملة من التاريخ)^(٥٩) . وقد كان لهذه الثقافة

^(٥٩) انور الجندي (معالم الفكر العربي المعاصر) . القاهرة ص ١٥٠ .

التي كان يعيش الانسان العربي ضمن اطارها في الجاهلية . حيث لم تكن في حياته سوى (نقطة مضيئة واحدة هي اللحظة الحاضرة كسرخ لنشاطه وبطولته)^(٥٦) . كما نستطيع ان ندرك ايضاً لماذا كانت العربية (اداة توحيد لثقافات عدة شعوب وأمم)^(٥٧) فيما بعد .

واخيراً ، نستطيع أن نعي ذلك المستوى المعجز من الإيجاز والبلاغة والفن في لغة القرآن ، وتلك الاصلالة التي تبلغ حد الروعة في التعبير عن عبقرية الامة وعن شخصيتها في المرحلة الجديدة ، التي انتقل فيها الانسان العربي من (الجاهلية) الى (الرسالة) وحقق من خلال الثورة الروحية المتمثلة بالاسلام شخصيته كاملة واعطي لثقافته العربية معنى الحضارة الانسانية .

في هذه المرحلة الجديدة ، اصبح (العالم كله) ، لا بل الكون وكل ما هو منظور وغير منظور ، مسرحاً لنشاط الانسان العربي ولتطبيق القيم الجديدة التي ظهرت في الحياة العربية^(٥٨) . وهكذا أنسف الى التراث العربي ، اللغوي والفكري في الجاهلية عنصر جديد ، تمثل بالقيم الجديدة التي اكدت عليها الايديولوجية الثورية التي نقلت مجتمع الجاهلية من اطار التجزئة القبلية

^(٥٦) ميشيل عفلق (في سبيل البحث) ص ١٠١ .
^(٥٧) انور عبد الله ، الفكر العربي في معركة النهضة . ص ٢٢ .
^(٥٨) نفس المصدر .

البعثة كل ما اثرته الفتوح والحضارة فيما بعد ، فكانت فلسفات
الكندي والفارابي وابن سينا وابن الطفيلي وابن رشد .

وكان كلام المتكلمين (كالغزالى) وفقه الفقهاء (كأبي
حنيفه والشافعى وأنس بن مالك وابن حنبل والمازاعي ٠٠٠)
وتتصوفة (كأبن الفارض والحلاج والماوردي وابن
عربى ٠٠٠) واجتهادات الفرق (الاشعرية والمعتزلة) وعلم
العلماء (ابن الهيثم والخوارزمي ٠٠٠) وشعر الشعراء (البحترى
وابو تمام ٠٠٠) وتاريخ المؤرخين (ابن حوقل ، والطبرى ٠٠٠)
ونقد النقاد (ابن قتيبة ٠٠٠) وموسوعات (الجاحظ وابن النديم ٠٠٠)
والجغرافيين ومهندسي البناء وشبكات الري وغيرها من العلوم
التطبيقية كالطب .

وحتى في عهود الانحطاط السياسي بعد سقوط بغداد عام
١٢٥٨ وتراجع الحياة العربية تدريجيا عن التأثير في مجرى
التاريخ ، بقيت شعلة الثقافة العربية على شكل ومضات معزولة
عن محيطها الهاباط العاجز عن التفاعل معها .

فالمجتمع العربي الذي (كان في عصر الفارابي يخلق الأفكار ،
وفي عهد ابن رشد كان يبلغها إلى أوروبا ، لم يعد في عهد ابن
خلدون (القرن الرابع عشر) قادرًا على الخلق والتبلیغ)^(٦٠) .

(٦٠) مالك بن بنى (مشكلة الثقافة) . مصدر سابق .

قطب رئيس ومحور هام هو القرآن الكريم . لأن في كتاب
العرب المقدس كان التعبير عن الشخصية العربية عيقاً ومحيطاً
بكل ابعادها بل ومتجاوزاً لحدودها الطبيعية المباشرة ومستوعباً
نوعها الإنساني .

لذلك لعب القرآن في حياة العرب دوراً يتجاوز حدود الأيديولوجية
الثوروية إبان الدعوة ، وحدود (الرسالة) إبان الاتصال والبناء
الحضاري . لانه استطاع في عهود الانحسار القومي والانحطاط
الاجتماعي والمحلة الاستعمارية ، أن يشكل درعاً واقياً للإمامية
العربية يحفظ شخصيتها وعقريتها اللغوية من الضياع ، ويحافظ
على روحها المتوبة حتى في أحلق صفحات التاريخ العربي ،
وأكثرها تعبيراً عن الضعف والتشتت .

فالقرآن هو الذي حسم جاهلية الجاهلية واميتها بالاعلان
عن الزامية التعليم ، اي يجعل طلب العلم فريضة على الإنسان
العربي ، رجالاً كان ام امرأة .

وهو الذي رسم للحياة العربية صيغتها الجدلية المتوازنة
في التعامل مع الواقع الموضوعي ومع النفس ، ومع الأرض
والسماء ، مع الرغبة ومع الصبوة .

والإسلام ايضاً ، هو الذي بدأ في السنوات الاولى من

التفكير والحياة فيه . كما يصعب علينا أن نتكلم عن (ثقافة عربية) اليوم خارج إطار مفهوم النهضة العربية . لأننا عندئذ تكون امام ظواهر الاعتراب الثقافي والتشويه التي هي حصيلة المرحلة السابقة لمرحلة النهضة . فإذا كانوا يعرفون الثقافة في الغرب بأنها (فلسفة الإنسان) . وفي البلاد الاشتراكية ، يعرفونها بأنها (فلسفة المجتمع)^(٦٣) ، فإن الثقافة العربية في الوطن العربي ، إنما هي (فلسفة النهضة العربية) . ومن هنا كانت النظرة العربية المعاصرة الى التراث لا بد أن تختلف اختلافاً أساسياً عن نوعين تقليديين متعارضين سابقين هما : (الموقف الجامد) و (الموقف المتحليل) من التراث القومي .

لأن الاول يأخذ شكل تكرار آلي للماضي . اما الموقف الثاني فهو يهجر التراث كما لو أنه عبء .

فكأن لا بد لمفهوم الثقافة العربية في عصر النهضة أن ينطلق من قراءة جديدة للماضي على ضوء حاجات المرحلة التاريخية الراهنة ومن خلال عقلية العصر . وأن يتمسّك بالتراث لأنه تذكر دائم ، وصلة وصل مستمرة بين الثقافة والامة . وعلى هذا الاساس فان العودة الى التراث تأتي من خلال مفهوم النهضة اي انها تكون بمثابة اكتشاف جديد للذات القومية واكتشاف

(٦٣) نفس المصدر .

لذلك (كان المتنبي شاعر القوة ، رد فعل لعصر الضعف ، عصر التفكك والانهيار . وكانت ثورته يائسة الى ابعد حدود اليأس لانه كان يشعر بأنه وحيد ، لا يجد مجموعاً حياً يتسبّب اليه) وهكذا فإن تراث ابن خلدون والمتنبي وغيرهما من الذين عاشوا في عصور انهيار الدولة العربية ، لم يكن يمثل الوسط الاجتماعي . وفي هذه الحال تفقد الافكار معناها الثقافي . اي قدرتها على ابداع (الاشياء) .

كما أن الاشياء نفسها تفقد ايضاً مقدرتها على انتاج الافكار . لذلك لم يساهم تراث ابن خلدون الذي ظهر في تلك المرحلة في تقديم الوطن العربي عقلياً او اجتماعياً . لأن الصلة الثقافية هي التي تسهل الافكار والأشياء قيمتها الذاتية والموضوعية في اطار معين كما (ان كل شيء يفقد معناه خارج اطاره الثقافي)^(٦٤) وعلى هذا الاساس ، فإن النظرة الى (التراث العربي) كعنصر اساس من عناصر الثقافة العربية ، يسكن أن تأخذ في مفهوم (النهضة العربية المعاصرة) معنى مختلفاً تماماً عن المعاني التي توحّي بها النظارات المختلفة المستمدّة من واقع التجزئة والاختلاف والمرحلة الاستعمارية . أو تلك التي اكتفت باحتذاء الغرب وتقليل انباط

(٦١) ميشيل عفلق (في سبيل البحث) ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٦٢) مالك بن بنى - مصدر سابق .

للتاريخ العربي للنهاية وللصيغة الفكرية الجديدة الملائمة لحاجات

هذه النهاية .

فالتراث حسب هذا المفهوم الجديد (هو ما استقر في وعينا وفي علاقتنا الاجتماعية وأسلوب حياتنا وقيم هذه الحياة ، مما يشكل دافعاً محركاً وضابطاً معلولاً وحواجز ، نحو تجديد الحياة في الأمة)^(٦٤) .

فالثقافة العربية المعاصرة تنطوي على التراث انطواء الزهرة على البرعم فهو جزء أصيل منها . بيد أنه (جزء) . وقد يكون في قول الباحث (كم ترك الاول للآخر) انسجام مع النظرة العربية الحديثة أكثر من قول عبدالله بن المقفع : (ما ترك الاول للآخر) . لانه يفتح الابواب امام المستقبل فلا يغلقها ، ويجعل التفاعل بين التراث والمعاصرة حياً يعزز الوحدة والنمو المستمر في الشخصية القومية الحضارية .

فالملهم أن يوظف هذا الماضي في خدمة اهداف النهاية العربية المعاصرة . فكل ما فيه من جوانب ايجابية نعتز بها ، ومن جوانب سلبية تتعظ بدروسها ، يشكل مادة لنضال العرب الفكري والعملي من أجل تحقيق وحدتهم القومية واستعادة اصالتهم وعطائهم الحضاري الانساني التقديمي .

(٦٤) انظر مقالة (محاور رئيسية في التراث) للمؤلف - صحيفة الشورة بغداد - العدد ٢٤٣٢ في ١١-٧-١٩٧٦ .

فالثقافة العربية اليوم هي امتداد هي لتراثنا العريق ، وهي اغناء مستمر له وليس عبئاً عليه ، كما أنها لا تنفصل عنه . وهي جهد مستمر لتحقيق هذا التراث ولاحياء ولاستيعاب الثقافات المعاصرة ، ضمن إطار الموقف الأصيل الذي عبر عنه (المهاجم غاندي) عند ما قال^(٦٥) :

« انتي اسمح لنواخذ بيتي أن تكون مشرعة على جميع رياح العالم . ولكنني لا أسمح لهذه الرياح أن تزحزح بيتي من مكانه » .

* الثقافة العربية المعاصرة :

يقول الشاعر المشهور (اليوت) ، في كتابه (ملاحظات حول الثقافة)^(٦٦) :

(لا يمكن أن توجد ثقافة (اوربية) اذا انعزلت اقطارها المختلفة بعضها عن بعض) .

فإذا كان ذلك يصح على الثقافة في اوربا ، فإن ذلك يأخذ طابع البداهة بالنسبة الى الوطن العربي .

(٦٥) انظر كتاب المهاجم غاندي (حياته) .

T.S. Elliot, Notes Towards a Definition of culture. (٦٦)

op. cit. p. 143.

ييد أن من الطبيعي والضروري أيضاً، أن تكون الثقافة العربية المعاصرة شيئاً أكثر من محصلة للثقافات المحلية القطرية، والا فانها في هذه الحال تفقد لحمتها الأساسية وتقف عند عتبة (تنسيق التجزئة) . وعندئذ لا تعود (ثقافة قومية) ، بل (ثقافات) ، هي محصلة لتناقضات الواقع العربي الراهن ، المتمثلة بالتجزئة والخلف ، وأثار المرحلة الاستعمارية القديمة والاحتلال الصهيوني وغيرها من العوامل المعاكسة لخط النهضة العربية . بدل أن تكون ثقافة عربية تعبر عن حركة الحياة العربية باتجاه الوحدة ، وباتجاه التطور المتسارع ، والحرية ، والتقدم ، أي باتجاه الانسجام مع قوانين حركة المجتمع العربي في المرحلة التاريخية الراهنة . فقد اقرن النضال من أجل الاستقلال السياسي والاقتصادي في الوطن العربي ، بالنضال من أجل الاستقلال الثقافي .

وكان الاستقلال الثقافي يعني العودة إلى (الاصل) الذي بنى عليه الثقافة العربية في الماضي القومي ، والذي ينبغي ان تقوم عليه الثقافة العربية المعاصرة . وهذا الاصل يتمثل بشخصية الامة العربية ، كما تتجلى في تراثها وفي نضالها اليوم من أجل أن تتحقق ذاتها أي وحدتها وحريتها وحضارتها .

لذلك فإن الثقافة العربية المعاصرة ، تنطوي اليوم على عملية صراع وتفاعل جدلية بين الدوافع التاريخية لهذه الثقافة ، وبين

وإذا كانت (الثقافة الأوروبية) هي حصيلة للساخلي بالدرجة الاولى ، فإن (الثقافة العربية) بقدر ما هي امتداد للساخلي ، فإنها أيضاً اضاءة للحاضر ، وكذلك هي اطلاعه على المستقبل . لازم (الثقافة الأوروبية) تعني افظاراً مستقلة ، مستكملاً السيادة ، متقدمة ، وتنتمي إلى شعوب وأمم مختلفة تجمعها الرابطة الجغرافية والرابطة الحضارية . أما (الثقافة العربية) فتعني اقطاراً امة واحدة هي الامة العربية ، حلت فيها التجزئة فمزقت جسدها المتد على الوطن العربي ، وتكونت فيها المصالح الاقليمية كمصالح مناهضة للوحدة العربية إلى حد بعيد ، نتيجة احتلال أجنبي ومخطط استعماري وصهيوني مغالب لرادتها ومتناقض مع شخصيتها ومع اتجاه حياتها ورسالتها .

وعلى هذا الاساس ، فإن (الثقافة العربية) ، التي تدفع الاقطار العربية في اتجاه احياء التراث القومي والاعتماد على الجذور القديمة للحضارة العربية ، من أجل بناء ثقافة عربية معاصرة وفي هذه الحالة يكون من الطبيعي ، بل ومن الضروري ، أن يكون الاهتمام بالتراث الثقافي القديم للاقطار العربية ، جزءاً رئيسياً من عملية الانساج الجديد للثقافة العربية المعاصرة ، وخاصة في الاقطار العربية التي شهدت مهد الحضارات القديمة ، والولى في التاريخ .

العربية صورة مقلدة باهتة من ثقافات الدول التي استعمرتها .
وقد من المفهوم الثقافي الجديد الذي انطلقت منه النهضة العربية الحديثة ، بمراحل . بدأها بأن التزم جانب الحذر تجاه الاتجاهات التي نظرت إلى الثقافة نظرة مجردة عن إطارها التاريخي وعن سياقها القومي .

فالنقد العربي المعاصر ، ينبغي حسب هذا المفهوم الجديد أن يتحرك ضمن إطاره الحضاري .
وعلى هذا الأساس ، فإن حركة النهضة الثقافية بدأت خلال القرن التاسع عشر ، من محاولات النهوض باللغة العربية ، واحياء التاريخ العربي ، وبعث الثقافة العربية^(٦٧) .

وكانت الاقلام العربية والصحافة والترجمات ، ترتكز على الاشادة بالعزيمة العربية وبالدور الذي لعبه العرب في الاسلام ، وكان الجيل الاول من المفكرين عرضة للاضطهاد^(٦٨) (فقد ترکت الحملات ضد المثقفين خلال ولاية السلطان العثماني عبد الحميد .

^(٦٧) قصيدة (ابراهيم اليازجي) التي يستنهض بها العرب .
وكتابات (جرجي زيدان) حول التراث العربي . وموسوعة (بطرس البستاني) . وكتابات (رفعة الطهطاوي) وترجمات (جمال الدين الافغاني) حول الاصلاح الاسلامي ، و (محمد عبده) حول البعث الذاتي و (عبدالرحمن الكواكبي) حول الاستبداد و (نجيب عازوري) حول اليقظة العربية .. الخ .

محاولات سلب هذه الثقافة ، التي هي قيد التكوين ، أصلتها وروحها التجددية المقاولة مع العصر ، وبين رواسب المراحل السابقة في طور انحطاط الحياة العربية . ليخرج من هذا الصراع ومن هذا التفاعل الجدي مفهوم هي لهذه الثقافة منسجم مع الشخصية العربية .

فمفهوم (الوحدة الثقافية) في الوطن العربي ، يشير إلى حاجات وضرورات استيعاب الخصوصيات الابigaية للتراث القومي والقطري جنبا إلى جنب مع استيعاب التيارات الثقافية العامة التي تعبر عن روح العصر . كما أن هذا المفهوم للوحدة الثقافية ، يعني أن تكون هناك (نظرة وحدوية) تنطلق منها الثقافة ، لتعالج على ضوئها المشكلات الثقافية في الأقطار العربية ، على أساس أن هذه الأقطار تنتمي إلى هوية ثقافية واحدة .

وكذلك أن تكون فكرة الوحدة الثقافية مستوعبة لأطراف المعادلة الثقافية : العمومية والخصوصية ، التراث والمعاصرة ، التجانس والتنوع . دون أن يكون طرف منها أو غيرها من الدوائر المتشابكة للعملية الثقافية ، على حساب بعضها الآخر .

فالثقافة العربية المعاصرة هي جزء من حركة النهضة العربية الحديثة ، لابد أن تنمو معها وأن تتطور ضمن إطار حضاري جديد يعيد للثقافة العربية هويتها ، بعد أن بقيت طيلة مراحل الانحطاط

والمحافظة ، الذي كان يشكل طابع تلك المرحلة ، الى موقف تم فيه التأليف بين الاتجاهين ، بنشوء المفهوم العلماني للعروبة) • أي يتبلور بدائي للمفهوم الجديد للثقافة العربية ، الذي ينطلق من التسلك بالتراث القومي الثقافي ، ومن التعامل مع هذا التراث على ضوء الحياة المعاصرة • وبتخليص مفهوم العلمانية من المعنى (٧١) (الذي ذهبت اليه بعض الدعوات التي وقعت احياناً في فح نفي التراث والهرب المتخفي من شخصيتها الحضارية) •

وقد جاءت انعكاسات الحرب العالمية الثانية على المجتمع العربي والملامح الجديدة للعالم الجديد الذي نشأ بعد الحرب ، معززة لهذا الاتجاه نحو تعميق اصالة الثقافة العربية المعاصرة ، والمزيد من تفاعಲها مع المعطيات الجديدة للحياة الحديثة ، على صعيد المعرفة والتكنولوجيا والتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية • • • الغ

كما ان جملة تيارات عامة جديدة ، كانهيار المفهوم الاستوغرافي للثقافة وبروز التيار التحرري والديموقراطي للثقافة ، ورجحان الثقافة العلمية والتكنولوجية ، ومثابرات الالترام في الثقافة وانفتاح الثقافات وبعد نشوء ما يسمى (ثقافة

(٧١) د . انور عبدالملاك . (الفكر العربي في معركة النهضة) دار الاداب ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢١ .

لذا هرب المثقفون السوريون الى مصر ، ولجأ المصريون الى القسطنطينية ، ووصل كثيرون الى باريس ولندن وجنيف) • كما تركت الحملات الاستعمارية في المشرق والمغرب ضد المراكز الثقافية التراثية •

وكان التأكيد على النظرة الحديثة للإسلام وعلى العروبية ولغة الفناد التي تجمع العرب على اختلاف اديانهم ، مدخلاً لاكتشاف مرحلة النهضة واكتشاف الشخصية العربية من جديد في ابعادها التراثية المعاصرة كل ذلك وسط دعوات متضاربة واتجاهات ثقافية يركب بعضها على (التحدث) (٦٩) أي (على القيم الغربية والاتجاه نحو اوربا الحديثة ، وعلى العلمانية عند البعض الآخر) جنباً الى جنب مع الدعوات المحافظة التي اخذت موقف رد الفعل والرفض للحضارة الغربية (وقيمها المادية) ..

ثم ما لبثت الثقافة العربية المعاصرة أن تجاوزت مرحلة القلق وموافق رد الفعل ، أي موافق (٧٠) (العجز عن صياغة موقف فكري مركب ومتناقض يحل التناقض بين حركتي التحديث

(٦٨) هشام شرابي (المثقفون العرب والغرب) دار النهار - بيروت ١٩٧١ .

(٦٩) نفس المصدر .

(٧٠) نفس المصدر .

فالثقافة العربية المعاصرة لا تستطيع ان تكون ثقافة (جزئية) ،
لانها مطالبة بمعالجة كل معالم الحياة العربية . وهي لا تستطيع ان
تكون (تجريدية) لانها مدعوة الى أن تجib على الاسئلة التي
يطرحها الواقع العربي مباشرة .

ثم هي لا يمكن ان تقتصر على (النخبة) لانها مضطرة الى ان
تستهضم الجماهير الواسعة كما انها لا تتحضر في قطر واحد ولا
 تستطيع ان تتوقف عند (النزعة القطرية) ، لانها تتصدى الى
التنافض الاكبر في حياة العرب المعاصرة المتمثل بالتجزئة . ثم انها
لا تستطيع ان تنغلق على الماضي بنزعة سلفية متجردة ، لانها تفقد
في هذه الحال قدرتها على التفاعل مع العصر . كما انها لا
 تستطيع ان تهمل تراثها الا اذا فقدت اصالتها وهي اخيرا مدعوة
 الى (اعادة بناء الشخصية العربية) ، عبر التلامم المتزايد والتصاعد
 بين حركة الفكر العربي وحركة النضال القومي . أي بين دينامية
 الثقافة وبين حركة النهضة العربية .

واذا كانت دينامية الثقافة تتجلى من خلال الزمر الخمس
للتبذلات الخمس في المجتمع^(٧٢) وهي :

١ - التبدل في العلاقات بين الانسان والطبيعة والمجتمع .

P. H. de laurve. la culture et le pouvoir. op. cit. (٧٢)
p. 313.

الفضاء) التي تستد الى ابعد تجاوز كوكبنا الارضي . كل ذلك
قد انعكس على الثقافة العربية بعد الحرب العالمية الثانية . ذلك
ان ثقافة المرحلة التاريخية الراهنة هي (ثقافة جماهير) ونضال من
اجل تصحيح وتقويم الاعوجاج في الحياة البشرية التي ورثت
عوامل سلبية عن المراحل السابقة للتطور ، أما على صعيد الامة
العربية ، فالمراحل التاريخية تتسم بنهضة شاملة تتطلب من الثقافة
ان تكون سلاحا فعالا في معركة المصير التي تخوضها الامة العربية
من اجل تحقيق وحدتها وحياتها ونبوتها الحضاري .

فالثقافة العربية ، كما تتطلبتها حاجات النهضة العربية ، لها
خصوصية تيزها ، وهي كونها مشدودة الى واقع تغتلي فيه
عوامل التنافض ، من تجزئة وتخلف واحتلال صهيوني وتفوز
ومصالح اجنبية ومخططات استعمارية . لذلك فهي بالدرجة
الاولى ثقافة تبع من ارض المعركة ولئن انعكست على الثقافة
العربية تيارات الفكر الليبرالي والاشتراكي . وغيرها ، فإن
المعاناة الداخلية هي في طريقها الى ان تصهر هذه التأثيرات جميعها ،
وان يجعل منها غذاء لثقافة تحررية وحدوية جماهيرية ، تستلهم
الجماهير العربية كطاقة نفسالية وحضارية ، والتراث العربي العتيق ،
من اجل افصاح نظرة علمية شاملة تفتح امام النهضة العربية آفاق
المستقبل اللائق بالدور الحضاري لlama العربية في هذا العصر .

القومية ، وقد (حرص بوتابرت في خطته ان يجعل لغزو الشخصية القومية معركته الكبرى بل انه اعطى لهذه الحملة النفسية أهمية افاقت اهمية السلاح والجنود)^(٧٣) .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار عملية التعرّيب التي تقاد تأخذ شكل ثورة ثقافية بعد ١٥ عاماً من الاستقلال في الجزائر ، وأكثر من عشرين سنة من استقلال تونس والمغرب ، وكذلك البدء بتعرّيب ما تبقى من المناهج العلمية في بعض الكليات الجامعية التي بقيت تدرس باللغة الأجنبية ، كالعراق مثلاً . ثم أخذنا بعين الاعتبار غربة مناهج التعليم عن حاجات النهضة العربية ، وعن حاجات التنمية في الأقطار العربية إلى حد بعيد ، وكذلك نسب الأممية وغيرها من مظاهر الحياة الثقافية والتربوية في الوطن العربي ، إذن لادركتنا أننا ما زلنا ندفع حتى اليوم ثمن المرحلة الاستعمارية ، ونجر ذيول مرحلة تاريخية سلبية ما زلنا تحمل في طياتها قيود التجزئة الثقافية وآثار الاغتراب الثقافي وأننا في صراعنا معها ، إنما نهدم هيكل قديمة ونشيد بنى وركائز جديدة ، ونصحح انحرافات ونواجه تنافضات ، ونبني شخصيتنا القومية وثقافتنا الوطنية المسجمة مع الاهداف الكبرى لكفاح الشعب العربي فالفكر

(٧٣) محمد عمارة (معارك العرب ضد الفرقة) ص ١٤٤ المؤسسة العربية بيروت - ١٩٧٢ .

- ٢ - التناقضات في البنى الاجتماعية *
 - ٣ - دينامية التطلعات الإنسانية *
 - ٤ - التبدلات الإرادية من اصلاحات وثورات *
 - ٥ - العلاقة بين التبدلات السيكولوجية - الاجتماعية ، وبين التبدلات في البنى والمؤسسات *
- فإن ذلك يعني أن دينامية الثقافة العربية المعاصرة لا يمكن أن تكون شيئاً آخر غير التعبير عن حركة الثورة العربية المعاصرة وايديولوجيتها *
- ان تحليل الطواهر (السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإيديولوجية) التي تتميز التطور الذي مرّ به المجتمع العربي خلال ثلث القرن الأخير ، يكشف لنا عن ولادة ثقافة جديدة (قومية تحررية تقدمية) تحمل ملامح النهضة العربية *
- * الثقافة والشخصية الفريدة :
- لقد عبر المنشور الاول الشهير الذي اعده تابليون بوتابرت والذي وزع على الناس مترجم الى اللغة العربية ، عند حملته لاحتلال الوطن العربي ، التي بدأها بمصر ، عن فكرة اساسية طالما اتخاذها الاستعمار بشقيه القديم والحديث ، قاعدة يبني عليها استراتيجيته الا وهي : استخدام الثقافة كسلاح لغزو الشخصية

وحدثها . والى الالفاظ معناها وقوتها)^(٧٤) .

فقد كان في بلادنا عدد غير قليل من الذين امتصتهم الثقافات الاجنبية والذين يعيشون باجسامهم بينما وبأفكارهم وارواحهم مع البلاد الاوربية ، وهم مع ذلك يعطون لانفسهم حق اعطاء الرأي في مشاكلنا وماضينا وحق التأثير والتوجيه .

فقد كانت ثقافتهم تشدّهم الى وسطها الحي الذي نشأت فيه . الى الغرب ، لذلك كانوا ينظرون الى المجتمع العربي (نظرة مجردة)^(٧٥) ولم تتوقف عملية (التجريد الثقافي) هذه ، الا عندما بدأ المثقفون العرب يدركون بأن اختيار الطريق السهل والاكتفاء بالنظر الى الواقع العربي من خارجه وعبر ثقافة ليست لها جذور في حياته ، لا يمكن أن يؤدي الى نتيجة ايجابية . وان العملية شاقة ولا تحدث الا بوجود شخصية عربية مستقلة ذات جذور عميقة في التراث القومي وذات آفاق عصرية واسعة ومتعددة ، في آن واحد .

وعندئذ انتقل الفكر العربي المعاصر الى مرحلة جديدة ، فتحت الصلة بين الثقافة المعاصرة وبين يقطة الشخصية العربية ،

(٧٤) ميشيل عفلق (في سبيل البعث) . ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٧٥) نفس المصدر ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

العربي المعاصر ، يمر بمرحلة انتقالية هامة يتجاوز من خلالها التحديد السلي لهويته (نحن لسنا غربنا . لسنا الغرب) الى التحديد ايجابي لهذه الهوية (نحن انفسنا . نحن عرب معاصرون) . أي الانتقال من المرحلة التي كانت فيها الثقافة العربية بعيدة عن الروح العربية وعن روح العصر في آن واحد . الى مرحلة بهذه الاتصال بين الثقافة العربية والشخصية العربية . وقد كان هذا الاتصال شرة لوعي بموقع الخل التي كانت تسود العلاقة بينهما ، وبادراك الطريق المؤدية الى التماسك والاتصال والتطابق فيما بينهما .

(كان العرب شديدي التأثر باللغة ، لأن الالفاظ كانت عندهم حفائق نابضة مترعة بالحياة ، فكان يسمعها القلب لا الاذن ، وتجيب عليها الشخصية كلها لا اللسان وحده ، لذلك كان للفظة قدسية وكانت بثابة تعهد ، تربط الحياة وتتصرف بها ، سواء حياة الفرد او حياة الجماعة فاللغة التي كانت كالورقة النقدية تمثل قيمة معينة من الذهب ، غدت مجرد قصاصة من الورق ، فنحن نرى نفسنا فقيرة الى حد العدم تستطيع أن تغرق من حولها بغير من الكلام . فلا غرابة في أن تفقد الثقة وتلتبس الامور ، ويكثر الغش والتلاعب . . . ، كانت الشخصية العربية كلاماً موحداً وقد آن لنا أن نزيل هذا التناقض ، فنجعل للشخصية العربية

عبر نوعين من التحدي كان أقرب إلى القانونين بالنسبة للمرحلة
العربية المعاصرة وهما :

آــ التحدي الداخلي : الذي يتمثل بظواهر الصراع داخل المجتمع
العربي ، بين (البداوة والحضارة)^(٧٦) ، بين التجزئة وتيار
الوحدة ، بين الثقافات السلفية والثقافات الحديثة .. فالقيم
البدوية ما تزال منتشرة ومتغلبة في مختلف فئات المجتمع
العربي وطبقاته ، والوطن العربي (يحتوي على أكبر امتداد
صحراوي على وجه الأرض)^(٧٧) ، وهو من ناحية أخرى
يضم أطول الانهار وأغزرها في العالم تقريباً ، وهو (مهداد
لحضارات العراق ومصر واليمن والشام وتونس والمغرب ..)
لذلك فهو أكثر المجتمعات كما يقول الاستاذ الوردي (معاناة
للصراع بين البداوة والحضارة) وإذا كانت البداوة ، كما
يقول المؤرخ الشهير (أرنولد توينيبي)، هي (حضارة مجمددة)
فإن المهمة الأولى للثقافة العربية المعاصرة هو أن تطلقها من
عقالها ، وأن تحسم الصراع الداخلي في نفس كل إنسان

(٧٦) د . علي الوردي - دراسة في طبيعة المجتمع العربي ، بغداد ، ١٩٦٥ وانظر أيضا دراسة (جابر عبد الحميد جابر) الشخصية
المصرية والشخصية العراقية والمنشورة في المجلد (٨) من مجلة
العلوم الاجتماعية القومية عام ١٩٦٨ .

(٧٧) نفس المصدر .

عربي وفي تفكيره وفي علاقاته الاجتماعية ، لصالح النهضة
العربية .

وكذلك الامر فيما يتعلق برواسب التجزئة وبآثار
مراحل الاضطهاد والتحكم الاجنبي ، وبالنظارات السلفية
الجامدة .

فالحركة الداخلية من اجل خلق نفسية الوحدة وعقلية
الوحدة والسلوك الوحدوي والنظرية الوحدوية الشاملة الى
الامة العربية ، وكذلك الامر فيما يتعلق بقيم الحرية
والديمقراطية والتزام مصلحة العدد الاكبر من جيابير الامة
العربية وتكوين العقلية المنظمة على التطور .. كلها تحديات
داخلية تصطدم بعادات وتقالييد ومفاهيم ونظارات ومصالح
مناهضة لها . لذلك كان نشوء الثقافة العربية المعاصرة مقترباً
بالحاجة إلى تربية جديدة وإلى تكوين للشخصية الفردية
وللأجيال العربية على اسس فكرية وقيمية جديدة .

فالثقافة بهذا الاعتبار هي (نوع من انواع النضال ، النضال
مع النفس ، النضال مع الفكر) ، لكي يتعب في تحصيل المعرفة ،
ولكي يجرأ على تبديل الاسس السطحية في الفكر الشائع ، ويعيد
النظر في كل الامور الاساسية حتى يصل إلى النظرة الجديدة)^(٧٨) .

(٧٨) ميشيل عفلق ، (في سبيل البعث) ص ٢١ - ٢٣ .

ونحن نلاحظ أن تطور الحياة العربية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، من جهة واتجاهات الاصلاح التربوي في الوطن العربي ، تتجه نحو تنمية مشتركة للثقافة والشخصية العربية ، ضمن اطار عملية جدلية وفعالية مستمرة للواقع .

ب - التحدي الغارجي : لقد فرض التحدي الاستعماري - الصهيوني على الحياة العربية خلال مرحلة النهضة المعاصرة ، طابع المعركة المصيرية الدائمة ، وفي حالات الاخطار المصيرية التي يواجهها فيها الانسان كفرد والامة كمجموع ، في كل يوم قضية الحياة والموت ، لا توقف المواجهة على الاسلحة المادية وعلى مخزون العتاد وعلى القوى المنظمة المعبئة للقتال . بل ان على هذا المستوى من المواجهة ، يصبح التحدي شاملاً وكلياً ، ويستهضف الشخصية بكاملها فيتحدى الصراع الفكرى كما يتحدى البنيان الداخلى للحياة الفردية والاجتماعية ، ويتحدى القيم التي تبني عليها هذه الحياة نفسها .

لذلك كانت الحروب المتسلسلة مع الكيان الصهيوني المفروضة على العرب لغاية نهضتهم وتحررهم ووحدتهم ، بمثابة منعطفات أساسية في تحقيق الالتحام بين الثقافة العربية المعاصرة وبين الشخصية العربية التي تواجه قدرها وتصارع عدوها .

وفي عام ١٩٤٨ ، عام النكبة الاول في فلسطين ، حاول العدو ان يستغل فشل العرب في منع الكارثة القومية ، ليعطي انطباعاً عن الشخصية العربية وعن عجزها وفشلها . في حين ان المعركة لم تكن تمثل القوة العربية ، بل كانت تعكس صورة الضعف والانقسام والتجزئة والخلاف ، أي كانت تعبير عن واقع أمة مغلوبة على امرها ، لم يكن مصيرها بيدها ، وهي ما تزال في اول الطريق نحو التحرر . فقد كان معظم الاقطارات العربية آنذاك خاضعاً للاستعمار فاقداً القدرة على اتخاذ قرار التصدي للاحتلال الصهيوني .

وفي عام ١٩٥٦ ، عام العدوان الثلاثي (البريطاني والفرنسي والصهيوني) على مصر ، حاول التحالف الاستعماري الصهيوني أن يرهب ارادة التحرر التي تشتلت بتأمين قناة السويس آنذاك وبمقاومة الاحلاف الاستعمارية وتحطيم احتكار السلاح ، وان يحطم روح المبادهة في الشخصية العربية ، وان يخنق شعلة الحماسة والروح النضالية ، وأن يردع العقل العربي عن الخروج عن الاطر التي حدتها له الثقافة الاستعمارية .

وفي عام ١٩٦٧ ، عام نكبة ٥ حزيران (٥ يونيو) ، تركزت قوى الصهيونية والاستعمار على تثبيت روح الهزيمة في الفكر العربي وفي النفسية العربية . وكثرت الابحاث حول التخلف التكنولوجى وتحول عجز الذهن العربي عن فهم حقائق العصر ،

والشخصية العربية عن مواجهة التحديات الخارجية^(٧٩) . وحتى بعد حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، حيث اقترب الانهيار في جهة العدو بانهيار الصور العنصرية المركبة عن الشخصية العربية^(٨٠) ، فقد استمرت المحاولات لضرب الشخصية العربية من داخلها ونزع ثقتها من نفسها ، وإعادة الذهن العربي إلى دوامة الترويض على الاستسلام للأمر الواقع^٠

كل ذلك بالرغم من أن رد فعل الأمة العربية على التحديات الخارجية كانت سلسلة تفوق فيها الانتصارات حجم النكسات لأن مرحلة الأمة العربية الراهنة مرحلة نهضة وصمود تشد الأمة العربية نحو الحرية واستكمال التطور ونحو الوحدة العربية ، وتنقل الشخصية العربية من مراحل التخلف والانحطاط إلى مراحل الوعي والثقافة والحضارة^{٠٠}

فقد كانت انتفاضات سوريا المتلاحقة بعد الاحتلال الصهيوني منذ عام ١٩٤٩ وكانت ثورة مصر عام ١٩٥٢ ، ثم ثورة الجزائر عام ١٩٥٤ ثم استقلال تونس والمغرب والسودان ، ثم الوحدة التاريخية بين مصر وسوريا وثورة ١٤ يوليو في العراق ، عام ١٩٥٨ ، سلسلة

(٧٩) انظر كتاب (د . السيد ياسين) الشـ صـيـةـ العـرـبـيـةـ بـيـنـ المـفـهـومـ الـاسـرـائـيلـيـ وـالـمـفـهـومـ الـعـرـبـيـ .

(٨٠) انظر كتاب (٦١ تشرين بين التسوية والتحرير) دار الطليعة ١٩٧٤ ، ص ٢٠ - ٢٤ .

صاعدة اذهلت العالم ، لأنها كانت تعبر عن فتح الشخصية العربية وازدهارها عبر وحدة النضال العربي^٠

لذلك كان طبيعياً أن تتباهى القوى الاستعمارية إلى خطورة هذا التحدي التاريخي على مصالحها ، فيمضي التحالف الاستعماري الصهيوني صعوداً في تركيز تأثيره من أجل ضرب هذه السلسلة من الانتصارات التي حققت تلاحمًا قوياً بين الوعي العربي وبين النضال العربي ، بين الثقافة العربية والشخصية العربية^٠

فكان مرحلة السبعينيات مرحلة جدلية من المد والجزر في التصدي للتحديات الخارجية ، ثم جاءت مرحلة السبعينيات التي شهدت (حرب أكتوبر) و (ما بعد حرب أكتوبر) ، وكيف أن التحالف الاستعماري الصهيوني يتابع مخططاته في تحويل الانتصارات العربية إلى نكسات جديدة تدخل على الشخصية العربية قلقاً دائياً ، وتفتح في الحياة العربية ثغرات جديدة ، وتضع الذهن العربي أمام مفارقات لا يمكن أن يستوعبها المنطق^٠

ييد أن مرحلة النهضة العربية كمرحلة تأريخية حتمية ، إنما تنطوي باستمرار على القدرة على امتصاص التحديات الخارجية وربطها بالتحديات الداخلية ربطاً جديداً ، ينقل موقع التطور في المجتمع العربي نحو مواجهة أكثر إيجابية وأعظم طاقة ، كلما اتسعت مشاركة الجماهير العربية في تقرير المصير العربي ، وكلما اشتد

التلام الداخلي بين الشخصية العربية وبين الثقافة العربية المعاصرة .
وعلى هذا الاساس ، ينبغي أن تتوقع امعاناً من اعداء النهضة
العربية ، في موقفهم العنصري من الشخصية العربية ومن الثقافة
العربية .

صورة الشخصية العربية في الغرب هي نقىض الصورة
الإيجابية المعطاة للشخصية الصهيونية ، سواء في الكتابات والصحافة
والاعلام ، والمفهوم الغربي كالمفهوم الصهيوني ، يربط السمات
المميزة للشخصية العربية بتطور الصراع بين العرب وبين (الاستعمار
الغربي والصهيوني) . وكلاهما عنصري ، لأن المعركة هي أساساً
بين عنصرية الاستعمار والصهيونية وبين انسانية القومية العربية
والنهضة العربية^(٨١) لذلك لا يمكن أن تتصور عملية اضاجع الشخصية
العربية والالتلام بين الثقافة العربية والشخصية العربية ، من دون
جهد منظم وجاهد مستمر على مختلف الأصعدة الإعلامية والثقافية
لتوسيع حقيقة الهوية الحضارية للنهاية العربية ، جنباً إلى جنب
مع تعنية الحياة العربية وتركيزها حول مجابهة التناقض الأساس
الذي يعيق تطور المجتمع العربي وتقدمه الذي يتمثل بالتحديات
الداخلية والخارجية التي تحدد الشخصية العربية في نمائها وفي
تعييرها الثقافي الأصيل عن ذاتها . وبهذا المقياس ، نستطيع أن

تكلم عن النضال الثقافي الذي يشكل البوقة الحقيقة التي تنصر
في داخلها كل آثار التفاعل بين الثقافة العربية المعاصرة وبين حركة
النهضة العربية ، والتي تجلو حقيقة الشخصية العربية ذات الطابع
الإنساني الحضاري ، امام العالم كلها . (ان للبشرية تاريخاً واحداً
مشتركاً ، برغم ما يحتمد بداخله من اقسامات قومية وطبقية .
و الثقافة كذلك تاريخ بشري مشترك . والثقافة الإنسانية الشاملة
هي خلاصة التجارب القومية والاجتماعية عبر التاريخ)^(٨٢) .

وإذا كان العرب في تهمتهم المعاصرة يتطلعون إلى تحقيق
انسانية أكثر انسجاماً مع القوانين العامة لتطور البشرية والحضارة
فإن المحافظة على الطابع الإنساني والحضاري لثقافتهم ولشخصيتهم
القومية بالرغم من صراعهم مع القوى الاستعمارية والصهيونية التي
تنتف في وجه التطور التاريخي لشعوب القارات الثلاث بوجه خاص ،
إذا يشكل الميزة الكبرى والقوة الأساسية لشعاعهم وتأثيرهم في
تجارب العالم المعاصر . وإذا كان تروتسكي في كتاب (الادب
والثورة) ، يعتبر ان للاعتقاد بأن (روسيا الايم) دوراً في تقديم
طريقة كاملة في الحياة الى سائر العالم وليس مجرد افكار ونماذج
سياسية ، بأن لهذا الاعتقاد ، اثراً كبيراً في جعل الوعي الثقافي اكثر
اصطباغاً باللغة السياسية^(٨٣) .

(٨٢) محمود أمين العالم (الثقافة والثورة) ص ١٦٨ .

(٨٣) اليوت (ملاحظات حول الثقافة) ص ١١٠ .

(٨١) انظر آفاق عربية ، بغداد - العدد ٥/١٩٧٦ والعدد ٤/١٩٧٦ .

الشخصية ، بين الفكرة العربية وبين حركة التغيير الشاملة في المجتمع
العربي .

فالامة العربية ، تتميز في هذه المرحلة التاريخية من تطورها ،
بكون نهضتها (ايجابية) لا توقف عند حدود رد الفعل على الحالات
الطارئة التي تعيقها الاجتماعي ، بل تتجاوز ذلك الى التعبير
المتكامل عن شخصيتها الحضارية التي تأخذ بحكم عمق التجربة
العربية المعاصرة واتساعها ، بعدها انسانياً متميزة .

ف (الثقافة العربية) هي تعبير عن شخصية تنموا وتتفتح
وتتجدد وتبدع . و (الشخصية العربية) هي وهي متزايد وموقف
حيوي من مشكلات الامة .

وكلاهما : الثقافة العربية والشخصية العربية ، هنا التعبير
المباشر عن حركة النهضة العربية المعاصرة ، المنسجمة مع حركة
التاريخ التقديمي للبشرية وادا كانت ابحاث علماء الانسان
(الاترپولوجيون) المعاصرة قد أكدت الدور المرجع للعوامل
المحيطية في تكوين الشخصية الاجتماعية والفردية^(٨٤) ، أي أن
(الشخصية انسا هي بالدرجة الاولى نتيجة ومحصلة للثقافة) ، فانتنا
نستطيع أن نقدر على ضوء ذلك مستوى المسؤولية الثقافية في

R. Linton. le fondement culturel de la personnalité. (٨٦)
Paris. 1968. p. 123.

كذلك فان من الطبيعي أن يكون للقاسم المشترك الذي يوجد نصال
الجماهير العربية في الوطن العربي الكبير ، دور في جعل القومية
العربية على الصعيدين الايديولوجي والسياسي بمثابة اللحمة
والسدى للثقافة العربية المعاصرة وللشخصية العربية .

وإذا كانت (الثورة السياسية والاجتماعية) قد سبقت الثورة
الثقافية) في الاتحاد السوفيتي ، كما يقول لينين^(٨٤) فان المضي
فيها ، (كان يشكل شرطاً أساسياً لكي تصبح بلاده اشتراكية بكل
معنى الكلمة) . وهذه الثورة لا تتحقق ، كما يقول (رولاف
لوروا)^(٨٥) ، الا اذا تحققت شروط ثلاثة :

- أ - حصول الجماهير الشعبية على ما افتقرت اليه من ثقافة .
- ب - خلق شروط جديدة للفعالية النوعية للمثقفين والاعتراف
بدورهم الاجتماعي .
- ج - البت اللازمادي مع الماضي القريب والتمثيل النقدي للتراث
الثقافي .

وعلى ضوء ذلك يتبين أن احدى الميزات الاساسية لحركة
النهضة العربية انما تتجلى في الالتحام المتزايد بين الثقافة وبين

Yacques Rigaud la culture pour vivre. op. cit. p. 123. (٨٤)

(٨٥) نفس المصدر . ص ١٢٤ .

هذه المرحلة التاريخية من حياة الأمة العربية

فالاجيال العربية اليوم محاطة بأنواع شتى من التأثيرات ،
بعضها غنوي وبعضها مصطنع ومحظط ، من أجل العivilولة دون
نشوء شخصية عربية مستقلة متحررة الإرادة والفعل ، مستوعبة
لحاجات المرحلة التاريخية ومستعدة لأن تضع ذاتها كاملة في طريق
النهضة العربية ، فلا بد أن تكون نقطة الانطلاق ، هي في خلق
المناعة الثقافية وتكون الحس النقدي جنبا إلى جنب مع الافتتاح
الثقافي الأصيل المتركم إلى وعي قومي يستمد من التراث القومي في
الماضي ، ومن المواجهة الدائمة للتحديات الراهنة ، مادته لبناء ثقافة
معبرة عن شخصية الأمة ، وجعل هذه الشخصية بمستوى القدرة
على تحقيق تحول تاريخي في حياة الإنسانية ، أي بمستوى الإنجاز
الحضاري والثقافي الملائم بأمة حضارية كأمتنا العربية .

ان الابحاث (حول الشخصية القومية) حدثة ، وقد كان
للحرب العالمية دور في تطويرها . وقد حاول الباحثون الامريكيون
نـم الصهيونيون أن يوظفوا هذه الابحاث بعد الحرب للقضاء على
الثورة الفيتامية وعلى الثورة الفلسطينية .

وقد كان البحث عن البناء الاساسي للشخصية العربية موضع
اهتمام عدد متزايد من الباحثين كان معظمهم يهدف انـي استخدام
العرفة بالشخصية العربية كسلاح لمحاربتها وتشويهها . وادا كان

من درس ينبغي لنا نحن العرب أن ننتزـعـه من التجربـةـ العـربـيةـ المـعاـصرـةـ
فـهـوـ الحاجـةـ إـلـىـ المـزـيدـ مـنـ الـعـرـفـةـ بـالـذـاتـ وـالـعـدـوـ ،ـ لـأـنـ هـذـهـ الـعـرـفـةـ
هـيـ السـلـاحـ الـأـقـوىـ فـيـ الـصـرـاعـ مـعـ التـحـديـ الدـاخـلـيـ وـالـخـارـجـيـ .

فالدراسة المنهجية للایديولوجية الصهيونية العنصرية ،
والممارسات الفاشية الجديدة في فلسطين ، والكشف عن حقيقة
الهوية العنصرية المعادية للإنسانية والحضارة في الكيان الصهيوني .

كل ذلك ، بالإضافة إلى المزيد من الوعي لتراثنا القومي
الإنساني وتركيزنا للنهضة العربية على اسس حضارية إنسانية ، أي
لجعل شخصيتنا القومية شخصية ثقافية ذات اشعاع منسجم مع
روح العصر . إنما يشكل ذلك المنعطـفـ التـارـيـخـيـ فيـ حـيـاتـنـاـ وـفيـ
الاتـتصـارـ عـلـىـ عـدـوـنـاـ وـفـيـ تـغـيـيرـ وـجـهـ الـعـالـمـ .

ان ثقافة (المواجهة المصيرية) وشخصية (الأمة المكافحة) من اجل
حقها في الحرية والوحدة والنهضة ، بما الجواب التاريخي على
المرحلة الراهنة من تطور المجتمع العربي .